ليلة حب

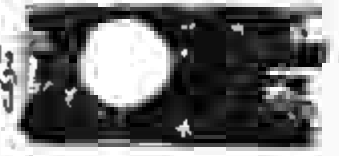

بقلم : محمد السعيد شوشة

كنا مجموعة من الصحاب ... شاعر وطبيب ورجل اعمال وديبلوماسي عربي

كانت الليلة من ليالي شهر يوليو التي يحلو فيها السهر تحت سماء القاهرة الساحرة ، وكان مجلسنا في شرفة فندق « سميراميس » التي خلت من روادها في تلك الساعة المتأخرة من الليل .

ولم يكن اجتماعنا في ذلك الوقت مجرد مصادفة ، بل كان اتفاقا ، فقد التقينا جميعا عند الضفة الشرقية سهام التي كانت تزمع في هذا الصدق لوداعها قبل سفرها الى وطنها في الصباح ، وقد تركناها منذ قليل لتأوي الى فراشها ، حتى تستطيع اللحاق بأول طائرة تبرح القاهرة .

وفي الواقع اننا جميعا كنا مفتونين بحب هذه الضاحية العربية ، ذات الجمال الشرقي الغامض الذي لا يقاوم ، ولكن كل واحد منا ، كان يكتم عن الآخر حبه ، ويداري عنه هواه ، ويسمي ذلك الحب مجرد الفة أو صداقة أو اعجاب ، لا أقل ولا أكثر ، فكان اذا جاء ذكرها في حديث عارض ـ وكثيرا ما كنا نتحاشاه ، باركين ذكره في القلوب ـ تضطرب كل محب ، محبوبه ، ويحاول التهرب منه .

ولذلك اخترنا شرفة سميراميس لمجلسنا في تلك الليلة ، لكي نحرس ذلك الملاك النائم ، ونستنشق ذلك العبير الذي يحمله الينا النسيم من ريح الحبيب .

كان جسم الصدق منهمكين في جمع المقاعد ، وتنظيف البلاط ، في صخب كان يعطي على اصواتنا ، ونحن متمسكون بمقاعدنا لا نريد مغادرتها حتى لا تفوتنا متعة تلك الجلسة الشاعرية .

ما أحلى الليل واروعه في شرفة سميراميس ، وقد انتهى الخدم من عملهم ، وهدأت الحركة ، وسكن الكون ، ولم تعد تسمع سوى همس الليل ممتزجا باصوات العوازف الصغيرة الحالمة التي تسبح على صفحة النيل مع ضوء القمر ، تروي أروع قصص الحب وتراتيم الهوى والغرام .

وكان حديث الهوى والقلوب ..

تكلمنا في مختلف الشئون والشجون ... ولكننا جميعا ، كنا ملتقى في

الحديث عن شيء واحد ، وهو الحب ، حيث أحد كل منا يروى قصته تجعل منه بطلا وفارسا مغوارا .

واتسع الخيال امام صديقنا الشاعر ، فروى لنا هذه المغامرة التي اختار مسرحها في باريس ، وبدأ حديثه عنها بالاشمئزاز من بائعات الهوى اللواتي يعرضن جمالهن هناك بكل سهولة ، لكل قادر على دفع الثمن !! ولم تكن لديه القدرة على الدفع !! ولكنه مالبث أن وجد في هذا الجمال الرخيص الذي يباع برخص التراب .

ولذلك حرص في زيارته الاخيرة على الهرب من هذا الصنف من النساء ، الى أن التقى في سهرة عائلية بفتاة ذات جمال نادر أسره جمالها ، بعد ان قرأ في عينيها قصة حب ، فحقق قلبه بحبها ولكنه تحسس جيبه ، فوجده فارغا الا من بقية قليلة من الفرنكات التي تسمح له بمعيشة ستة أيام ، يعود بعدها الى ارض الوطن . ولذلك قطع الامل في أن يحظى منها بموعد لقاء في هذه الرحلة .

وقال الشاعر : لكن صاحبه الحفل ، قامت بمهمة التعريف بينما ، التي راقب كلا منا تعلقا بالآخر ، فقد كانت مثل شاعرة .

وعزفت الموسيقى ، فاردت أن أحدثها مرقصة ، فمضت بي برشيقة على أنغام موسيقى التانجو الحالمة ، ورحت أروى لها شعري ، وهي تروى لي شعرها ، الذي حملني على أجنحة الخيال ، فقد كانت قصيدتها تعبيرا رقيقا عن مشاعر الانثى المتعطشة للحب بعنوان « أصوم الحاضر » .

وانتهت السهرة ، ووضعت يدي في يدها مودعا ، متعللا بالسفر ، وانا أتحسس جيبي الخاوي ، وادا بها تتعلق بي ، وفي نظراتها نداء صارخ ، وترجوني البقاء بضعة أيام أمضيها في ضيافتها في بيتها الريفي الذي تقيم فيه بمفردها في احدى الضواحي ، فوجدت نفسي امام فرصة ذهبية ، لم أشأ ان تضيع مني .

وصاح الجميع بصوت واحد

ـ وماذا فعلت ؟

فمضى يقول وهو سعيد بانه اثار حماسنا ، الى متابعة قصته

ـ لم تتركني في تلك الليلة ، واصرت على أن تذهب معي الى الصدق بسيارتها الحمراء الصغيرة ، لتحمل حقائبي الى بيتها الريفي .

وكانت مغامرة ، لم تكن تخطر لي على بال .. فقد عشت معها أيامي الستة الباقية في باريس .. وقبل أن يبزغ فجر اليوم السابع حملت حقائبي وهي نائمة دون أن تشعر بي لاحق بالطائرة ، لكي أهرب من موقف الوداع الاليم .

ثم كانت هذه الايام الستة عنوان ديوان شعرها الأول ، الذي بعثت به الي ، فقد كان يحلل اسم « ستة أيام في الحب » .

***

اما الطبيب فروى تلك القصة التي زعم انها وقعت له في مستهل حياته العملية ، فقال :

كنت في ذاك العهد متمسكا بشرف المهنة ، وواجب الطبيب الذي لا يقل قداسة عن واجب الكاهن أو القديس . وقد حدث وقتئذ ان استدعيت في ساعة متأخرة من الليل لزيارة مفاجئة في بيت أحد مرضاي ، فارتديت ثيابي على عجل ،

واسرعت لعيادة هذا المريض . فاذا في احد المنزل حاليا من كل انسان فيما عدا زوجته ، التي كانت تذكرني بزوجة قيصر التي كانت سمعتها فوق مستوى الشبهات .

كانت ترتدي قميصا حريريا شفافا، وتفوح من جسدها رائحة العطور ، وعندما رأتني اصطنعت المرض، واستلقت في فراشها الوثير في فتنة واغراء ، وأخذت تشرح لي الآلام والاوجاع ، وترعم لي ، بانها تشعر باختناق شديد، ولا تستطيع التنفس ، ولكني وجدت بعد الكشف الدقيق ، انها ليست مصابة بشيء ، ولما صارحتها بذلك ، رأيت في عينيها أشياء لا يعرفها الا الشيطان ، فما كان مني الا أن حملت حقيبتي وهممت لها ، وأنا أهم بالانصراف

ـ حرام عليك يا سيدتي .. اني لا أزال في مستهل حياتي العملية ابحثي لك عن طبيب آخر !

وحاولنا أن نصدق هذه الحادثة ، ونحن ما زلنا في حيرة من صدق مغامرة صديقنا الشاعر .. ثم أرهفنا السمع للمغامرة التالية لرجل الاعمال .

كان رجلا ناجحا في حياته العملية يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع ، لكنه كان في قرارة نفسه يشعر بأنه فاشل في حياته العاطفية ، لانه لم يكن مقبولا شكلا أو موضوعا ، وبالرغم من ذلك كله ، راح يروي هذه القصة ، فقال :

حدث ذلك في أثناء الحرب العالمية الماضية . فقد التقيت بفتاة انجليزية حسناء ، كانت قد جاءت الى مصر لتلحق بجيشها الذي كان يحارب في صفوف الحلفاء ، ولكنها لم تعثر عليه ، فعاشت في القاهرة غريبة وحيدة ، حتى التقت بي ، فسببت ذلك الحب الذي جاءت من أجله ، وأصبحت لا تستطيع ان تعيش يوما واحدا بدون أن تراني ، حتى وصل ذلك الحب الى الذروة ، وكاد ينتهي الى زواج ، ولكني لم البث أن تنحيت عن طريقها لاني احسست بأني لن أستطيع ان أسعد هذه الفتاة الجميلة المتعطشة للحب ، لانها كانت تصغرني بعشرين عاما ، ثم مضيت بعيدا عنها ، وفي قلبي حسرة !

***

وانتهى الجميع من ترنرتهم في جو تلك الليلة العاطرة بالحب ، فيما عدا الرابع الذي لم يبس خلال السهرة ببنت شفة ، فقد كان يجلس شارد الفكر عنا ، لا تتحول عيناه عن مائدة الغرفة ، التي كانت ترقد فيها سهام .

كان هذا الصديق ، هو الدبلوماسي العربي الذي لزم الصمت ، لكننا أخذنا نتهيأ للكلام ، حتى خرج عن صمته ، وروى لنا تلك المغامرة ، فقال :

كنت وقتذاك طالبا نابغا في احدى مدارس بيروت ، وكانت تتعلمني طالبة باحدى مدارس الراهبات ، فذهبت يوما لزيارتها ، واذا بي التقي ببطلة هذه القصة .

كانت كاترين زميلة لشقيقتي في الدراسة ، لم تتجاوز ربيعها السابع عشر ، فتألقت روحانا مع النظرة الاولى .

ومنذ ذلك اليوم ، ظللنا نتقابل جلسة حتى داع امر حبنا ، وادى ذلك الى فصل كبتي لانها أمضت ليلة بعيدا عن المدرسة ، وهنا قمت بدور الفتى الشجاع ، وعرضت عليها الزواج ،

وعاهدتها على الوفاء بهذا العهد ، حيث اقدمها الى اسرتي في اليوم التالي .

وهي الواقع التي كنت حائرا في هذه الفكرة وفاتحت الاسرة بكل صراحة وشجاعة ، في امر الزواج ، فاذا بها تسمع قولي ، وتستعين من التفكير في هذا الامر ، حتى أتم دراستي العالية ، وأستطيع الاعتماد على نفسي في الحياة .

كان هذا المنطق المعقول ، ولكني رفضته بكل سعادة لأني وجدت فيه قرارا حائرا على حبنا ، وعزمت على الذهاب اليها في الموعد المحدد ، لنتزوج في الخفاء ، وليكن بعد ذلك مايكون .

وسرت في طريقي اليها ، شارد الفكر ، أحلم بالايام السعيدة التي ساعيشها مع كيتي ، وأسائل نفسي كيف استعدها عندما تحل على اسرة بسبب هذا الزواج .

وبينما كنت اسير على هذه الحال ، صدمتني سيارة ، صدمة شديدة ، ولم أفق لنفسي ، الا بعد أيام في أحد مستشفيات ، ولم اخرج منها الا بعد ثلاثة أسابيع .

كان اول شيء قمت به بعد مغادرة المستشفى ، هو البحث عن كيتي ، فتشت عنها في كل مكان .. ولكني لم اعثر لها على اثر .

ومرت الايام ، وسافرت الى باريس لاتمام دراستي ، وصورة كاترين لم تبرح خيالي ، لان حبها ، كان قد ترك في نفسي جرحا عميقا لم يندمل .

وذات ليلة دعيت مع بعض اصحاب لحضور سهرة في أحد ملاهي حي « البيجال » الصاخب وبينما كنا نلهو بمشاهدة البرنامج ، ظهرت راقصة لم يعرها اي اهتمام ، أخذت ترقص رقصة غجرية ، وهي توقع على الدف في توقيعات عنيفة مع دقات الاقدام . كأنها تروي قصة حب من نار .

وبعد ان انتهت من رقصتها دارت على الجالسين بالدف ، تجمع « البقوط » حتى وصلت الى مائدتنا ، ونحن في شغل عنها بصديقة كانت تجلس معنا ، فأخرجت من جيبي قطعة من ذات العشرين ، والقيت بها في الدف ، بغير اهتمام .

وفي هذه اللحظة فقط ، تلاقت نظراتنا ووقف كل منا جامدا في مكانه أمام الآخر ، فان هذه الراقصة الغجرية اللعوب ، لم تكن سوى تلك الفتاة البريئة الطاهرة التي احببتها ذات يوم وكانت ستصبح زوجتي .

ثم ارسلت تنهيدة حارة من قلب جريح وحول بصره نحو نافذة الغرفة ، التي تصم سهام ، وقال : نعم ، لم تكن سوى كاترين .

وهنا أدركنا من تكون كاترين ، فان سهام كان لها اسم آخر غير هذا الاسم الغجري ، الذي استهرت به ، ولكن انظارنا لم تتحول عنه ، فقد كان هناك سؤال حائر .. يحتاج الى جواب ، كيف اختفت كاترين فجاة بعد موعد اللقاء الذي تخلف عنه بسبب الحادث الذي وقع له في نفس اليوم ؟ وهاد ذلك العاشق الصامت الذي مازال يعيش على ذكرى حب قديم ، وقال :

لقد استسلمت لأول شاب آخر ، فاذلها بعد أن تخلصت عن لقائها في هذا اليوم ، الذي كانت ستصبح فيه عروسا ، وهربت معه الى باريس لتنتقم مني ، بعد أن خيل لها الوهم ، انني خنتها غادر !